يسعى إلى إخراج التراث العماني من عباءة الخرافة

خالد الكندي: أترك فرصة للقارئ للبحث عن تفسير الاضطرابات في الرواية

يشتغل بهدوء ويفكر بعمق. له مشروع إبداعي سردي واضح الملامح والتفاصيل. ينبش دائما في الذاكرة والتاريخ. يلتقط أطراف الحكايات من مجالس كبار السن، ويغوص في اللغة والتاريخ بحثا عن أصولها، ويتحرك في فضاء الحكاية لابتكار مساحته الخاصة من الدهشة والمتعة الفنية، محققا بذلك المعادلة الصعبة في تطوير النص التراثي والارتقاء بها فنيا إلى مصاف الأعمال الروائية والسردية التي تخاطب الذائقة المعاصرة بحساسيتها الخاصة.

وقد نجح في ذلك على نحو لافت، حيث تمكنت روايته (الجاعد الأبيض) أن تتبوأ الصدارة في مبيعات مؤسسة بيت الغشام منذ صدورها، إلى جانب أعماله الأخرى مثل «رسالة إلى قورش» و«القافر» و«أم الدويس» و «مرارة الذئب» و «حكايات من نخل».

إنه الروائي والكاتب الدكتور خالد بن سليمان الكندي، الذي يكشف في هذا الحوار عن سر الإقبال الذي تحظى به أعماله السردية، كما يتحدث عن تفاصيل مشروعه الإبداعي بوجه عام.

دعنا نبدأ بالحديث عن روايتك (الجاعد الأبيض) التي تعد أحد أكثر الكتب مبيعا من بين إصدارات بيت الغشام .. ما سر نجاح هذه الرواية؟

أستطيع أن أقول إن رواية الجاعد الأبيض جاءت في ظرف الأزمة الاقتصادية التي تمر بها منطقة الخليج عمومًا والأزمة السياسية التي تمر بها المنطقة العربية عمومًا، لتقدم نموذجًا لشخصية سياسية واقتصادية عمانية متميزة حقيقية هي شخصية أبي زيد، استطاعت بفكرها واجتهادها المخلص أن تعالج الأزمتين المالية والسياسية اللتين مرّت بهما بهلا خصوصًا وعُمان عمومًا في عهد الحربين العالميتين، إذ انتشر الجوع، وعم الفقر، وقلّ الأمان، وكثرت الصراعات.

وذلك لأن شخصية أبي زيد تمسكت بالزهد وتنزيه نفسها عن الانتقاع بما لا يحق لها من المال العام، ثم قيامها بالمساواة بين الرعية وعدم قبول الرشوة من الأغنياء، فضلًا على استصلاحها الأراضي واستثمارها للأوقاف ومزجها لمصادر المال العام؛ ما ساعد في بناء مؤسسات الدولة، وتعمير البلاد، ونهضة الصناعة وإحياء الزراعة وتوسعتها، والتعامل مع المفسدين بصرامة، ورفع معاناة المحتاجين، والتشجيع على التعليم، ومراقبة التجارة، والقيام بالإرشاد الديني في محلات بهلا، وقرض المعسرين وتوظيف العاطلين، وتمكين القضاء.

إن إدارة كل هذه الأعمال وتحقيقها كان كفيلًا بنجاح هذه الشخصية وإعجاب الناس بها في زمانها، فإذا أضفنا إلى هذه الأعمال التقنيات السردية والإضافات الموضوعية والفنية عرفنا سرّ إعجاب القارئ بهذه الرواية.

في أكثر من إصدار عمدت إلى جمع وتوثيق كمٍّ كبير من الحكايات في التراث العماني .. ما الذي تهدف إليه من هذا المشروع؟

ينبغي أن أصرّح هنا بأن عملي ليس توثيقيًّا أو تاريخيًّا بالدرجة الأولى، ذلك لأنني في أكثر أعمالي ألتقط الفكرة العامة أو الحكاية القصيرة من كبار السن، ثم أجتهد في تمطيطها بفصول من الخيال المناسب لزمن الحكاية، والاهتمام بتقنيات السرد الحديثة وخصائصها المعاصرة؛ لتغدو على النحو الذي يراه القراء. ولكن اهتمامي بالتراث العُماني نابع من رغبتي في تقديم حكايات لها أصل حقيقي؛ مبتعدًا عن الحكايات الخرافية التي شُحِنَتْ بها الحكايات الشعبية المروية، متجهًا إلى تقديم صور تراثية تجمع بين تثقيف القارئ بالحياة الثقافية والاقتصادية التي عاشها الآباء، وتنبيه القارئ على قضايا اجتماعية وإنسانية تتكرر عبر الزمان يأخذ منه العبرة.

أعود إلى كتابات المستشرقين في زمن الحكاية لرسم ملامح قد تكون مفقودة لدى كبار السن

من أين تستقي مادة هذه القصص والحكايات، وما هي الآلية التي تنتهجها في عملية الجمع؟

كل أعمالي السردية سوى «الجاعد الأبيض» و «رسالة إلى قورش» (وهي القافر، وأم الدويس، ومرارة الذئب، وحكايات من نخل) كانت تخلط بين حكايات متفرقة حكاها لي كبار السن وخيال أضفته إليها مناسب لزمانها، ولذا قد تكون في الرواية الواحدة حكايات متفرقة لكني أُحْسِن التنسيق بينها في الرواية فتظهر كما لو كانت لُحْمة واحدة متسقة، ثم إنني أعود إلى كتابات المستشرقين ورحلاتهم في الزمن الذي وقعت فيه الحكاية لأستفيد منها في رسم ملامح اجتماعية وسياسية وثقافية قد تكون مفقودة في حكايات كبار السن. وأما في رواية الجاعد الأبيض فكان عليّ بالإضافة إلى ما سبق أن أقرأ جُلّ ما كُتِبَ وأن أستمع إلى حكايات شفوية عدة عن أَبي زيد؛ لأنسق بينها وأتوقع موضع كل منها من زمن حياته، وأضيف من خيالي ما يساعد على إضفاء حبكة تشويقية على حياته، وما يسُدّ الثغرات المعرفية التي تنقص في الحكايات والمصادر.

كيف تتعامل كتابيا وإبداعيا مع هذه الحكايات، وما هي الإضافة التي تدخلها على النص الأصلي؟

أفضّل دائمًا عدم المحافظة على المقطع السردي؛ فأتعمد تفريق المشاهد المشوقة لأعلق قلب القارئ بمتابعة أحداث الرواية، وأعمد إلى حكايات سمعتها أو خيالات أبدعتُها كلها من الغرائبية ـ لكن ليس بمفهومها الخرافي بل بمفهوما العجائبي ـ لتكون أكثر جذبًا للنفوس، وأترك فرصة للقارئ ليبحث عن تفسير الاضطرابات التي تحصل في الرواية، فلا أقدم له الحل إلا بعد فصول طويلة من القراءة لأختبر أُفُق توقعه. وأحبذ دائمًا إضفاء اللمسات البوليسية على المقطع السردي برمته.

بعض الحكايات تأخذ أكثر من صيغة في رواياتها.. كيف تتعامل مع اختلاف روايات الحكاية للتوفيق بينها؟

على الرغم من أنني أتلقى مصادر حكاياتي الشفوية بلهجات عُمانية متعددة، ورُواة تتفاوت ثقافتهم وقدراتهم في عرض الحكاية؛ فإني أتجاوز اختلافاتهم في العناية بتقديم الرواية بعربية فصيحة أحرص فيها على التدقيق اللغوي، وأجْهَد فيها في البحث عن المرادف العربي لكل لفظ لهجي بقدر المستطاع، ثم إنني لا ألتزم بحكاية واحدة في الرواية بل أنتفع من حكايات متعددة لكني أضفي عليها تغييرات زمانية ومكانية وسردية تجعلها متسقة مع المقطع السردي العام للرواية، ولا شك أن العبء الأكبر والجهد الأهم يحصل بالإضافات الخيالية التي أحرص على مناسبتها لمضمون الرواية وعناصرها السردية.

في مشروعك الروائي أيضا لم تخرج من التراث العربي والعماني.. ما سر هذا التعلق بالتراث لديك؟

كنت أتوقع أن بعضهم سيؤاخذني على هذا التَّمَضْوُع المتواصل؛ فخرجت في روايتي الأخيرة (رسالة إلى قورش) إلى سرد صراعات سياسية وثقافية بين حضارات قبل الميلاد كانت في الأناضول وبلاد فارس ومصر وبلاد الشام وبلاد ما بين النهرين، وقد كلّفني ذلك جهدًا مضاعفًا بقراءة كتب لمختصين في كل حضارة؛ إذ كنت ألاحظ اختلاف الروايات بين الباحثين في التاريخ والآثار، فكنت لا أعتمد في معلومات كل حضارة إلا قراءة ما كتبه المتخصصون فيها من المؤرخين وعلماء الآثار، ولأجل أني أهدف إلى حبكة واحدة هي بيان مواقف الملوك وسياسات حكوماتهم وآثارها السلبية والإيجابية في شعوبهم فكنت أضيف إلى ما قرأته صورًا من خيالي لأوصل القارئ إلى أن يربط بين ما حصل في الشروق الأوسط قديمًا وما حصل في الشرق الأوسط حديثًا.

وأما سائر الأعمال السابقة فكان هدفها إخراج التراث العماني من عباءة الخرافة إلى الصور الحكائية الحقيقية التي تحكي واقعه السياسي والجغرافي والثقافي والاجتماعي والعمراني، فتكون فائدته أعظم للقارئ العربي، ثم ترجمة هذه الأعمال إلى لغات عدة ليطلع الأجانب على صورة أخرى غير الصورة النمطية التي جسّدتها حكايات علي بابا والسندباد وألف ليلة وليلة.

تعمد في ختام الرواية إلى إيصال رسالة مباشرة، اجتماعية أو سياسية أو غيرها.. كيف يمكن أن يحمل النص الإبداعي رسائل مباشرة دون أن يفقد قيمته الإبداعية؟

■ لا أقدم في رواياتي حقائق ولا أكتب تاريخًا؛ بل عملًا فنّيًا

أحافظ في رواياتي على عدم تدخلي بصيغة السارد العليم؛ بل أترك للقارئ حرية أن يتخذ قراره فيما أعرضه من قضايا. وحين أجد أن مشهدًا من المشاهد قد لا يتقبله المنطق المعاصر والعقل المثقف الجديد فإني أعرضه بصورة غير جازمة على لسان إحدى الشخصيات ليعلم القارئ أن هذا ليس حدثًا حقيقيًّا بل قابلًا للنقاش. وتبقى لرواياتي قيمتها الإبداعية في الإضافة الفنية والخيالية الكثيرة التي يظن القارئ ـ لحسن سبكها ـ أنها من أصل الحكاية فلا يفرق بينهما.

تعاملت مع شخصيتين تاريخيتين في روايتيك وهما قورش وأبو زيد الريامي.. كيف توظف الرمز التاريخي في رواية معاصرة؟ وما هي آلية المعالجة الفنية لمثل هذه الروايات؟

ربما يلومني ـ من لا يفهم الطبيعة الخيالية لفن الرواية ـ في تقديم تفصيلات عن شخصيات حقيقية لا تثبت عنها، وهذا ما أريد تأكيده، وهو أني لا أقدم في رواياتي حقائق ولا أكتب تاريخًا؛ بل أقدم عملًا فنّيًّا هدفه أن أعرض شخصيات أقرب إلى الرمزية منها إلى الحقيقة، ولكنني لا أصرح في رواياتي بما هو حقيقي وبما هو غير حقيقي؛ بل أترك القارئ في متعة اتساق الأحداث الحقيقية والخيالية ليعلم أن الغاية هي القضية التي يحملها النص حملًا رمزيًّا لا في الثناء على الشخصيات البطولية التي تضمنها الرواية.

لديك تجربة في ترجمة بعض أعمالك إلى لغات أجنبية .. كيف تنظر إلى هذه التجربة، وما مدى نجاحها؟

لأجل أني أهدف إلى تقديم التراث العماني في ثوب يحمل ثقافة اجتماعية وسياسية واقتصادية مفيدة بعيدة عن الخرافة، فقد ترجمت رواية القافر إلى الفرنسية، ورواية مرارة الذئب إلى الإنجليزية والألمانية، وحكايات من نخل إلى الإنجليزية. وقد أوصلت هذه الترجمات إلى جامعات ومراكز ثقافية في أوروبا والعالم العربي، ورأيت أن لهذه الحركة صدى في تعريف القارئ الأجنبي بتراث عُمان وصورتها الاجتماعية والسياسية والثقافية القديمة الحقيقية، وفائدة في مد جسور التواصل بين الكتابات العُمانية ودُور الثقافة العربية والعالمية، فضلًا على إمكان أن يطلع السائحون الأجانب على هذه الروايات في زيارتهم لعُمان، وقد دُرِّسَتْ بعض هذه الحكايات المترجمة في بعض أقسام جامعة السلطان قابوس كنموذج للحكاية التي تعكس البيئة العمانية بدلًا من جلب حكايات أجنبية بلغات أخرى تعكس ثقافات أخرى لا تتصل بثقافة الطلاب العمانيين.

وما هو المشروع القادم للدكتور خالد الكندي؟

أفكر في كتابة روايات اجتماعية تخدم قضايا معاصرة، تدور أحداثها حول أحوالنا الحاضرة في بيئتنا العمانية؛ مع المحافظة على الكتابة في خط التراث أيضًا.

نصوص

لا أعلم أين أنا
لأول مرة أشعر بالغربة
في عقر داري!
وكأن الليل وكائناته..
تحالفن ضدي..

هل هو المساء موحش
أم الوحشة في ذاتي وقراري؟!

وكنا والآلام تعيش في داخلنا
نحرق النفس كشمعة
ذابت لتنير المكان !

الشمعة خمدت وانتهت
واستُبدلت..
وحدها قضت
لا أحد يذكرها في الظلام.

**

هذا العالم غريب
تدور عجلته دون هوادة
أحباب الأمس غرباء اليوم.
وحده الوطن..
يبقى حبنا الذي لا تدور دائرته!

للصباح وجه مختلف
تماما عن كل تلك الأقنعة البلاستيكية
التي نتعثر بها..
في كل حين وآن!
يبقى واضحا
وقرص الشمس دليل التائهين فيه.

إلى تلك الروح التي غادرتني
على قيد النسيان
اطمئني فقد تعافيت ..
أخيرا تعافيت.

ما رأيت شيئا أكثر ديمومة
من المؤقت في المشاعر الإنسانية.
فقد خلق الإنسان معجونا..
بطين النسيان .

حين تغادر شيئا ما بملء إرادتك
فإياك ثم إياك أن تتلفت
فالحنين ليس سوى فخٍّ مبطن للعودة.

أسير على خطى الأيام
أفتّش وجوه المارة
صوت هنا
وضجيج هناك.

حين سقطت زجاجة العطر
من بين يدي بكيت..
قد كانت آخر جسور الذكرى..
بيننا.

**

من كتاب «بعثرة شجن» سيصدر قريبا عن مؤسسة بيت الغشام

منى المعولية

لم أزل أتكئ على عكاز الأمل
ولم تزل أنفاسي..
تستثير الحياة.

أيها الليل القادم بسود الأحلام..
تريث.
فلم يزل في تجويف الذاكرة..
نور يدحض الظلام.

وكن كريم النفس
رافع الرأس
واحفظ تقلبات الدهر..
على عجل .

بين صادر القلب ووارده
رسائل لم تصل!

كنفق مظلم
لا بصيص لخيط النور في آخره..
تتلاعب بنا الأمنيات.
قد تبقى الحروف
متبعثرة بلا معنى!
وربّ «لا»
كان لها ألف معنى!

كل المسافات
قهقهة الرفاق
صمت الطرقات
كائنات الليل
تتوارى خلف السكون.
أتراه الليل يهمس..
بحكايانا للغرباء!
هذا الليل بيننا.